شَجَرَةُ

الأَنبِيَاءِ

-١٨-

زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

الرحمة والكتاب

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥ منصور الرفاعى عبيد.

م ن ز ك زكريا ويحيى عليهما السلام: الرحمة والكتاب/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.

٢٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛١٨)

تدمك : ٣ ـ ١١٥٥ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٩٨ / ٩٦٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بُيوتُ الله فى الأرض المسَاجدُ، وكَانت المعَابدُ اليَهـودِيَّةُ، وكنَائسُ النَّصارَى، هِىَ بُيُوتُ الله قَبلَ مَبعث سَيدنَا رَسول الله مُحمد ﷺ.

وخدمَةُ بيوت الله مِـنْ أجَلِّ الأعمَال وأعظمهَا، امتدحَ اللهُ فَـاعليهَا وأَثنَى عَلَيـهِم، ووعَدَهُم بالأجْر العَـظيم والثَّواب الكَرِيم، والسَّعادَة فى الدُّنيا والفَلاح فى الآخرَة، فَهـذَا إبراهيمُ أبو الأنبياء، وخليلُ الرَّحمنِ هُوَ وابنُهُ إسْماعِيل، كَانَا أوَّلَ القَائمينَ عَلَى خدمَة بُيوت الله فى الأرض.

يذكُرُ لَنَا القُرآنُ الكريـمُ، كَيفَ قَامَا ببنَاء الكَعبَـة المشرَّفة، أوَّل بَيت يُوضَعُ لعِـبادَة الله فى الأَرْض، وكَـيفَ كَـانَا يَقومَـان بتطْهـيره وإعْـداده لاستقبَال المتعبِّدينَ الخاشعينَ. يقُولُ عزَّ من قَائل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] كَمَا يقُـولُ جلَّ شأنُهُ فى آيَات أُخْرَى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وكَانَ جَميعُ الأنبياء يَقومُونَ بشَرف خدمَة بُيوت الله، وهُناكَ مَنْ نذَرَ نفْسَهُ وحَـيَاتَهُ وحيَاةَ أُسـرَته كُلَّهَا لهذه المهمَّـةِ الجليلَة، بِلاَ انتظَار أجرٍ أَوْ مُكافأة، إلاَّ حُبًّا فى الله والإيمَان به.

وَقدْ تعدَّدَتْ بُيوتُ الله فى الأرضِ قبـلَ ظُهور الإسْلاَم. وكَانَ أوَّلُهَا الكَعبةَ المشـرَّفَةَ الَّتى يذكُرهَا اللهُ فى القُرآن الكَريمِ فَـيقُولُ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وكَانَ يَقُـومُ عَلَى خدمَة هذَا

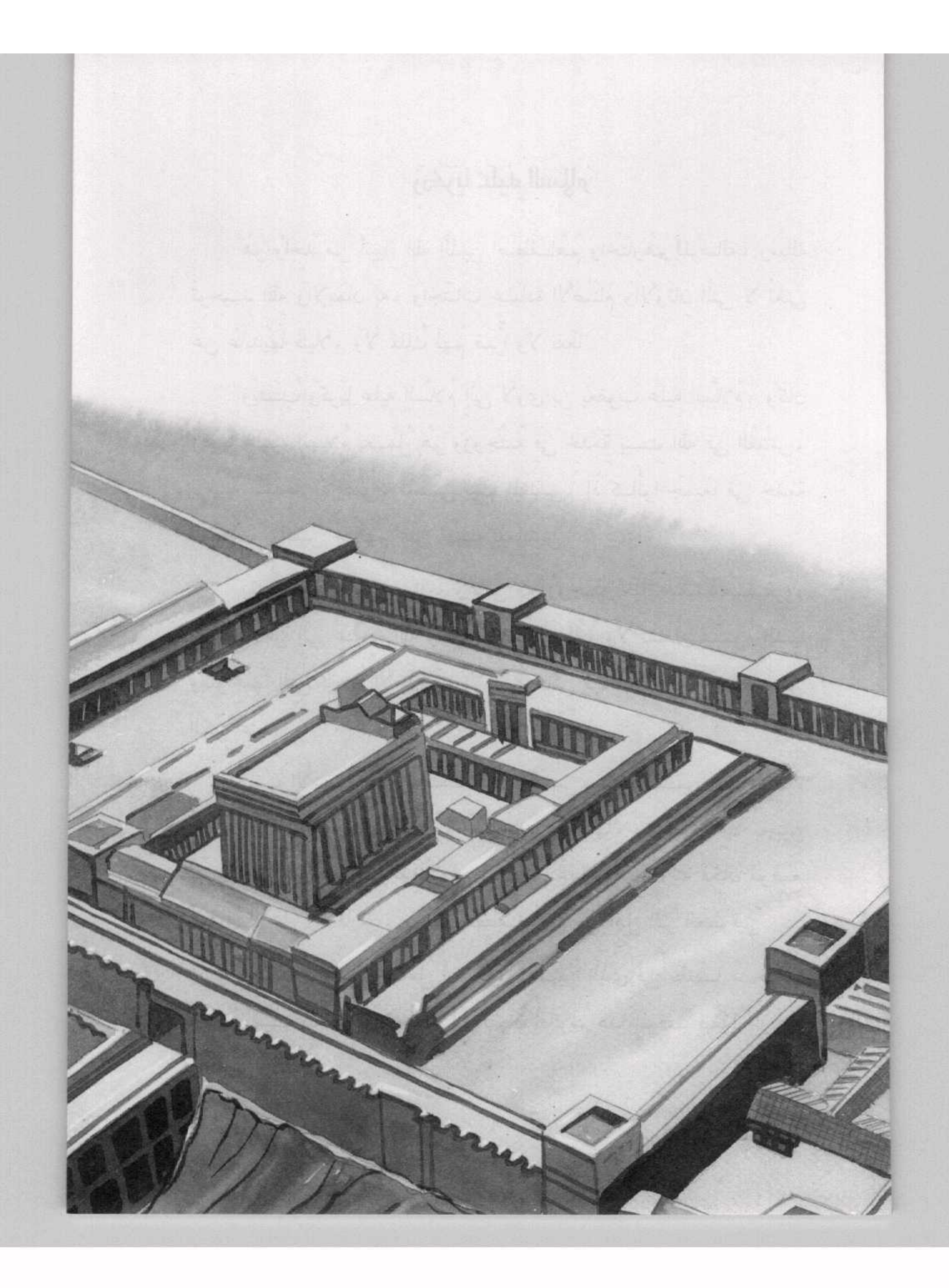
البَيت سَيدُنَا إسماعيلُ عَليه السَّـلامُ هُوَ وَذريَّتُهُ منْ بعده، كَمَـا كَانَ هُنَاكَ المسجدُ الأَقـصَى الَّذى بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ، وذَكَرَهُ فِى القُرآن الكَرِيـم بمناسَبة إسراَءَ النَّبىِّ مُحمَّد عَليه السَّلاَمُ إليْه، فقَالَ عَزَّ وَجلَّ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

[الإسراء: ١].

وَيقَالُ أَنه بُنِى بعْـدَ الكعْبة بحـوَالَىْ خَمسِـينَ عَامًا، كَمَـا كَانَ هُنَاكَ بُيُوتٌ أخْـرَى، بَنَاهَا سَيـدُنَا إبرَاهيمُ وذريته منْ بعْـده، إسْحَاقُ ويعْـقُوبُ وذريَّاتُهم منَ الأَنبيَاء الَّذينَ أَرسَلهُمُ اللهُ تعَالَى فِى أَرضِ الشَّام.

وكَانَ القَائـمُونَ عَلَى خدْمة هذه المسَـاجد والبيُوت يمْـتازُونَ بدرجَة عَاليَـة منَ الإخْلاَصِ والاجْـتهَاد فِى العِـبَادَة، حَتَّى أَصـبحُـوا ارْبانيِّين، يَستجيبُ اللهُ دعَاءَهُم ويحقِّقُ رَغبَاتهمْ، حَتَّى لَوْ كَانتْ ضدَّ مظاهر الطَّبيعَة العَـادَّية، أَوْ تَقعُ فِى دَائرَة الإعْـجَاز البَـشرى، ولَكـنَّهَا فِى دَائرَة القُـدرَة الإلَّهية شَىءٌ يَسير، لاَ تُعجزُ اللهَ الذى لاَ يُعجزهُ شَىءٌ فِى الأَرضِ ولاَ فِى السَّمَاء.

وَسَنعيشُ فِى قصَّتنَا هَذه مع نَبيَّـين كَريميْن صَالحيْن، آتاهُمَا اللهُ منَ النِّعمة والفَضلِ مَا لَمْ يؤته إلاَّ عبَادَهُ المُخلصين.



زَكَرِيَّا عليهِ السلامُ

هُوَ وَاحِدٌ مِنْ أنبياءِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ واخْتارَهُمْ للرِّسالةِ، رسالَةَ تَوحِيدِ اللهِ وَالإيمَانِ بِه، وَاجتَنابِ عِبَادةِ الأَصْنَامِ وَالأوثَانِ الَّتِى لاَ تُغنِى عَنْ عَابدِيهَا فَتِيلاً، وَلاَ تملكُ لَهمْ ضَرّاً وَلاَ نفعًا.

ويُنسَبُ زكريَّا عَليهِ السَّلامُ إِلَى لاَوى بنِ يَعقوبَ عَليهِ السَّلامُ، وَكَانَ زَكريَّا عَلَيهِ السَّلامُ يعمَلُ هُو وزَوجَتُهُ فِى خدمَةِ بيتِ اللهِ فِى القُدْسِ، لرِعايَةِ المسْجدِ الأَقصَى، المسَمَّى بيتَ المقْدِسِ، إِذْ كَانُوا جَمِيعًا فِى خدمَةِ الهيكَلِ، واقِفِينَ حيَاتَهُمْ عَلَى تَهْيئته للعَابدِينَ.

وتَزوَّجَ مِنْ نَسْلِ عمرانَ، وعَاشَ مَعَ زَوجَتهِ حَياةً سَعيدَةً مُستقَّرةً، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادةِ اللهِ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، ولاَ تشغَلُهُ هُمومُ الدُّنيَا وشَواغلُهَا الَّتِى تُزعِجُ الآخَرِينَ، إِلاَّ أَنَّهُ عَاشَ فرْداً بِلاَ ذرِّيَةٍ حَتَّى بلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عتيًّا.

كَانت الأُسرَةُ تقُومُ بخدْمَةِ بَيتِ المقْدسِ، وَمِنْ ضِمْنِ هَذِهِ الأُسرَةِ أُختُ زَوجَةِ زَكريَّا عَليهِ السَّلامُ، الَّتِى مَاتَ زَوجُهَا، وتَركَهَا حَاملاً بجَنِينٍ لَمْ تكتحلْ عيناهُ بُرؤيَةِ وَالِدهِ، ولَم تكتحلْ عَينَا والدِه برؤْيتِه فكانَ مَوضعَ إِشفَاقِ الأَهلِ والأَقارِبِ، ومَحَلَّ العَطفِ وَالبرِّ مِنْ أَهلِ البرِّ العَطوفِينَ.

وَنَذَرت الأَرملةُ الحَامِلُ أَنْ يكونَ الجَنينُ الَّذى فِى بَطنِهَا مُحرَّرًا وخَادِمًا لِبيْتِ المقْدسِ، ويحكِى لَنَا القُرآنُ الكريمُ هَذا الموقفَ فيقُولُ:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥، ٣٦].

ولَقَدْ ولَدتْهَا أُنثَى، ولَيستِ الأُنثَى ذَاتَ قُدرة كالذَّكرِ فِى حَملِ أَعباءِ الخدْمةِ الربَّانيَّةِ فِى بُيوتِ اللهِ، ولَكنْ لاَ بدَّ مِنَ الوفَاءِ بالنذْرِ، ولاَ بُدَّ أَنْ تَعيشَ مريمُ فِى بَيْتِ اللهِ، فَمنِ الَّذِى سَيَكفُلُهَا ويَقُومُ برِعَايتِهَا؟

اجْتمَعَ الأَهلُ والأَقاربُ وخُدَّامُ المعبَدِ منَ أَحبارٍ وعُلماءَ، لينظُروا مَنْ منهُمْ سَيَتكفَّلُ بتربِيَةِ مَريمَ ورعَايتِهَا، وقَطعًا للخلافِ بَينَهُمْ اقترعُوا، ومَنْ يخرُجْ سهْمُهُ فِى القُرعَةِ يكنْ هُوَ الكَفيلُ بتنشئَةِ مريمَ. وكَانَ منْ بينِ الرَّاغبِينَ فِى كَفَالَتِهَا زوجُ خَالتِهَا، زكريَّا عَليه السَّلامُ، وقَدْ أَحسَنَ اللهُ بِه، وحقَّقَ رَغبتَهُ، فخرَجَ سَهمُ القُرعَةِ عَليهِ، وأَصبحَ هُوَ الكَفِيلُ للطفلَةِ المنذُورةِ لخدْمةِ المعبَدِ.

وتَقبَّلَ اللهُ مريَمَ بقَبولٍ حَسنٍ، وأَنبتَهَا نَباتًا حَسنًا، فشبَّتْ عَنِ الطَّوقِ وصَارتْ عَابدَةً صَالحةً تُصلِّى وتَصُومُ وتفعلُ مَا يفعلُهُ العُبَّادُ الصَّالحونَ، ولَكنْ فِى محرَابٍ خَاصٍّ بِهَا، فَلاَ تَختلطُ بمَنْ فِى المعْبدِ منَ الرِّجالِ.

رأَى زكريَّا عَليه السَّلامُ آياتِ اللهِ البَاهرةَ وإِكرامَهُ لمريمَ، وكَانَ كُلمَا دَخلَ علَيهَا المحرَابَ وجدَ عندَهَا طَعامًا كثيرًا، ورزْقًا وفيرًا، فَيسأَلُهَا: منْ أَينَ لَكِ هَذَا يا مَريمُ؟ فتَقُولُ بإِيمانٍ وصِدقٍ: هوَ منْ عِندِ اللهِ، إنَّ اللهَ

يرزُقُ مَنْ يشَاءُ بغير حسَـاب. فَزادَ يقينُ زَكريَّا بأنَّ اللهَ لَنْ يَخذُلَهُ إذَا رَكنَ إليه، وسَيَستجيبُ لَهُ إذَا دعَاهُ.

لَقدْ بلغَ الثَّمانينَ منْ عُمره، وبَلغَتْ زوجَتُهُ السَّبعينَ، وكَانت امْرأتُه عَاقـرًا لاَ تنْجبُ، وَهوَ قَدْ وَهنَ العَظْمُ منْهُ واشْـتعلَ الرَّأسُ شَيْـبًا، ولَكنَّهُ رَغمَ ذَلكَ لَمْ يفقـد الأَملَ فِي استْجَابة اللهِ دُعـاءَهُ إذَا دَعاهُ، وَهوَ لاَ يُريدُ إلاَّ ولَدًا يَرثُ عَنهُ الخدْمـةَ فِي بيت الله، فَهوَ صَاحبُ الرِّئاسَـة الدِّينية فِي قَوْمـه بَنِي إسرائيل، ويَخْشَى أنْ يَخْـلفَهُ فِي هَذه الرِّئاسَة أحـدٌ منْ خَارجِ أسرة لاَوِى، فَـيهملَ الخـدْمَةَ فِي المسْجـد الَّذِى أوقفَ زَكريَّا حَـيَاتَهُ عَلَى رِعايَته وإعْداده لاستقَبال المتعبِّدينَ.

ودَعَـا زَكـريَّا ربَّهُ، ربِّ هَبْ لِي مِـن لَدنْكَ وَليًّـا، يَرثُنِي ويرثُ منْ آل يَعقوبَ، واجْعلْهُ ربِّ رَضيًّا.

فَـجـاءَتْهُ البُـشْرَى وَهُـوَ قَائمٌ يُـصلِّى فِي المحْـرَاب، ونَادتهُ المَلائكَةُ بصَوت سَمعَهُ وصَدَّقَهُ: يَا زكريَّا إنَّ اللهَ يبشرُكَ، بغُلامٍ اسمُهُ يَحيَى مصدِّقًا بكلمَـة منَ الله، وسَـيـدًا، وحَـصُـوراً (أىْ لاَ يأتِي النِّسَـاء) ونبـيًّـا منَ الصَّالحينَ.

ورَغمَ يَقين زكريَّا عَليه السَّـلامُ بقدْرة اللهِ تَعالَى عَلَى فعْلِ أىِّ شَىْء فِي أىِّ وقت يُريدُ؛ لأنَهُ القَـادرُ الخالقُ، إلاَّ أنَّ المفَـاجَأةَ عَـقدتْ لسَـانَهُ، وَأوقفَتْ تفكيرَهُ لحظَات، فراجَعَ المَلائكَةَ قَائلاً:

كَيفَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ، وَقَـدْ أَصبَحْتُ شَـيخًا عَجـوزًا؟ وهَذه امْرأتِي أيضًا عَاقرٌ لاَ تُنجبُ، كَيفَ يَكُونُ ذَلكَ، وَالعادَةُ لَمْ تَجر بأنْ تحملَ العَاقرُ أَو ينجبَ الشَيخُ العَجُوزُ؟ ولكنَّهُ تذكَّرَ قُـدرةَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى فردَّدَ معَ المَلائكَة قَائلاً: كَذلكَ اللهُ يَفعَلُ مَا يَشاءُ.

خرَّ زكـريَّا سَاجداً لله عـزَّ وجلَّ، شاكرًا نعـمَتـهُ سبحَـانَهُ وتعالَى، وكذلكَ يفـعَلُ الأَنبياءُ وَالصَّالحُـونَ عندَ كُلِّ موْقف يَشعُرونَ فـيه بنعَمِ اللهِ الَّتي لاَ تفْنَى ولاَ تنفَـدُ. ولكنَّه أَرَادَ أَن يعرفَ الوَقتَ الذى سَـتحملُ فـيه زَوجتُهُ، فقَالَ: ربِّ اجعْلْ لِى آيةً. أَىْ عَـلامةً أَعرِفُ بِهَا ذلكَ. فقَالَتْ لَهُ الملائكةُ.

إنَّ آيةَ ذلكَ أَنْ تعجَـزَ عَنِ الكَلامِ معَ النَّاسِ ثَلاثَة أيَّامٍ، فَلاَ يتـحَرَّكُ لِسَانُكَ بلفظ ولا يمكِنُكَ أَنْ تتفاهَمَ مَع أحَدٍ إلاَّ رَمْزًا، وبِالإِشَارَةِ فَقَطْ.

وَما هِيَ إِلاَّ أَيَّامٌ حـتَّى حَملتْ زَوجَتُـهُ بيَحيَى، وكَانَتِ البـشَارَةُ أَنْ حَاولَ زكـريَّا عليه السَّلامُ أَنْ يتـحَدَّثَ مَعَ قَومِـه فَلَمْ يمكنْهُ الكَلاَمُ، ولَمْ يَقدرْ عَلَى التفَاهُمِ معَهُمْ إِلاَّ بالإِشَارَةِ، والرَّمزِ.

ولَقدْ قَصَّ عَلينَا القُرآنُ الكَرِيمُ هَذِه الأَحـداثَ فِى سُورة آلَ عمرانَ، فَقَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٣٧ - ٤١].

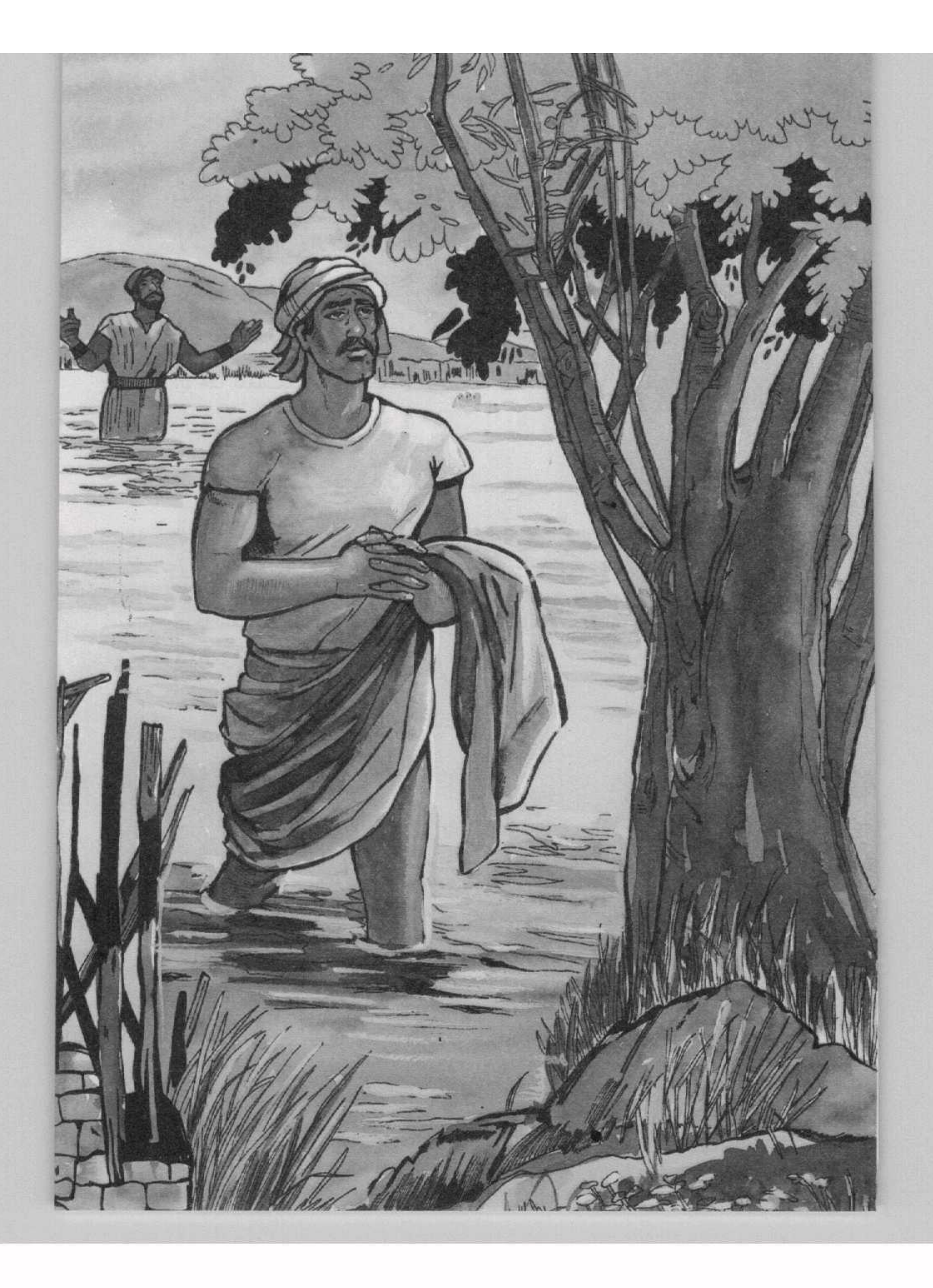
يَحْيَى عليه السلام

تَحققَت بُشرَى الله عزَّ وجلَّ، وحَملت زَوجَةُ زكريَّا العَجوزُ العقيمِ بابنَها يَحْيَى، الَّذى اختَارَ اللهُ له اسْمَهُ من فَوق سَبع سَموات، فَلمْ يُسمَّ أَحدٌ بهذَا الاسمَ من قَبلِ هذَا، وتلكَ نعمَةٌ أخرَى من الله عزَّ وجلَّ علَى عباده الصَّالحين، فكَانَ يحيَى هُوَ أَولُ مَنْ يُسمَّى بهذَا الاسْم بإذْن الله عزَّ وجلَّ، وكَانَتْ أُمُّهُ تُسمَّى حنةُ، وَولدَ فِى نفسِ العَامِ الَّذى وُلدَ فِيه المَسِيحُ عَليه السَّلامُ.

كَانَ يحيَى بشارَةً منَ الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه زكريَّا عليه السَّلامُ، وعَاشَ طُفُولَتَهُ فِى رحَابِ بيت المَقْدس، ولَكنَّ والدَهُ عوَّدهُ عَلَى الخُرُوجِ إلَى البرِّيَة ليَشبَّ قويًا، وليتحَمَّلَ تبعَات الدَّعوة إلَى الله، فكَانَ طعَامُهُ فى البريَّةِ هُو الجَرادُ والعَسَلُ البَرِّىُّ، فنَشأَ علَى الزُّهد والقَناعَة والصَّبرِ عَلَى شَظف العَيْش والاسْتغْناء عَمَّا فِى أيدى النَّاس، وتلكَ مُقومَاتُ حَياة صَاحبِ أىِّ دَعوة لئَلاَّ يكُونَ لأحَدٍ عَليه فَضْلٌ أَوْ يَدٌ ينحنِى لَهَا حيَاءً أوْ يخْنَعُ لَهَا ذُلا.

وآتَى اللهُ يحيَى الحكَم والنبوَّةَ وَهو صغيرٌ، فكَانَ بارعًا في الشَّريعَة الموسَوِيَّة، الَّتى أَتَى بهَا مُوسَى عَليه السَّلامُ، وكَانَ مَرجعًا مهمًّا لكُلِّ مَنْ يطلبُ أَحكامَهَا، أَوْ يَستفتِى عَنْ مسأَلَة منْ مَسائلهَا.

وكَانَ يَحيَى عَليْه السَّلامُ، عَلَى أكملِ أَوصَاف الصَّلاح والتَّقْوَى مُنذُ صبَاهُ، فكَانَ شَابًّا جَميلاً هَادئَ البَال رزَينَ النَّفْس، طَاهرَ القَلب، وَقدْ بَعَثَهُ اللهُ برسَالة التَّوحِيدَ إلَى بنى إسرائيلَ قَبلَ أنَ يبلغَ الثَّلاثِينَ منْ عُمره، وكَانتْ دعوَةُ يَحيَى عَليه السَّلامُ إلَى النَّاسِ أنْ يتُوبُوا من ذُنوبهم تَوبةً نَصوحًا خَالصَةً لوجْه الله، صَادقةً معَ العَزْم علَى ألاَّ يعُودُوا إلَى ذَنْب أبدًا، وكَانَ التَّائبُ يَأتِى إلَى يَحيَى عَليه السَّلامُ، فَيأمُرُهُ بالاغْتسَال فى نَهر الأُرْدنِّ للتَّطَهُّر مِنَ الخطَايَا والذُّنوبِ والآثامِ الَّتى عَلقَتْ بقلوبِهمْ



وَبأجسادِهِمْ، وكأنهم يدْخلُونَ الإيمَـانَ والإسْلاَمَ مِنَ جَدِيد، وَهكَذَا نَجدُ الأمرَ نفْسَهُ فِى الإسْـلاَمِ، لأنَّ مِنَ شُروط دُخـول المرء فِى الإسْلاَمِ، أنْ يَغتسلَ قَبْلَ أنْ ينطقَ بالشَّهادتيْنِ، حتَّى يُطهِّرَ جَسدَهُ ورُوحَهُ مِنْ ذُنوبه الَّتى كَانَ يَفعلُهَا قبلَ الرَّغبَةِ فِى الإسْـلاَمِ. ولأجْلِ ذَلكَ الاغتسَال أسماهُ اليَهُودُ «يُوحَنَّا المعمَـدَانُ» أى المعمِّدُ؛ لأنَّ هذَا الاغْـتسَالَ فِى اصْطِلاَحِـهمْ يُسمَّى «الـمَعْمُودِيَةَ».

كَانَ الـيَهـودُ يَنتظِرُونَ ظُهورَ المسِيح عِيسَى بن مَريمَ، الَّذى ظَـهر بِالفـعْلِ فِى ذَلكَ الزَّمنِ، ولكنَّ اللهَ وَهبَ يَـحيَى علَـيه السَّـلامُ النُّبـوَّةَ، والحكْمَ صَبيًّا، وفِى ذَلكَ الوقْت كَانَ المسِيحُ قَدْ هَاجرَتْ بِه أُمُّهُ إلَى مِصْرَ، خوْفًا عَلَى حَياته مِنَ اليـهُودِ الَّذينَ كَانُوا يأتمرُونَ لقتْله إذَا جَاءَهُمْ عَنْهُ أىُّ خَبر. . فكَانَ اليَهودُ يقُولُون ليَحيَى:

هَلْ أنتَ المسِيح. . النَّبىُّ المنتظَرُ؟

فَيجِيبُهمْ صَادِقًا:

لاَ. . لَستُ أنا هُوَ. .

فَيسألُونَهُ بمكرٍ ودهَاءٍ ليتخلَّصُوا منه:

هَل أنتَ نَبىٌّ؟

فَيجِيبُ يَحيَى بصدقٍ:

أنَا صَوتٌ صَـارِخٌ فِى البَريَّة، هَيِّـئُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، وَافـعَلُوا طُرقَهُ مُستقِيمَةً.

قَالَ اللهُ تعالَى فِي سُورةِ مريَم:

﴿ ذكْر رحْمت ربّك عبْده زكريّا ﴿٢﴾ إذْ نادىٰ ربّهُ نداءً خفيًّا ﴿٣﴾ قال ربّ إنّي وهن الْعظْمُ منّي واشْتعل الرّأْسُ شيْبًا ولمْ أكُن بدُعائك ربّ شقيًّا ﴿٤﴾ وإنّي خفْتُ الْموالي من ورائي وكانت امْرأتي عاقرًا فهبْ لي من لّدُنك وليًّا ﴿٥﴾ يرثُني ويرثُ منْ آل يعْقُوب واجْعلْهُ ربّ رضيًّا ﴿٦﴾ يا زكريّا إنّا نُبشّرُك بغُلامٍ اسْمُهُ يحْيىٰ لمْ نجْعل لّهُ من قبْلُ سميًّا ﴿٧﴾ قال ربّ أنّىٰ يكُونُ لي غُلامٌ وكانت امْرأتي عاقرًا وقدْ بلغْتُ من الْكبر عتيًّا ﴿٨﴾ قال كذٰلك قال ربُّك هُو عليّ هيّنٌ وقدْ خلقْتُك من قبْلُ ولمْ تكُ شيْئًا ﴿٩﴾ قال ربّ اجْعل لّي آيةً قال آيتُك ألاّ تُكلّم النّاس ثلاث ليالٍ سويًّا ﴿١٠﴾ فخرج علىٰ قوْمه من الْمحْراب فأوْحىٰ إليْهمْ أن سبّحُوا بُكْرةً وعشيًّا ﴿١١﴾ يا يحْيىٰ خُذ الْكتاب بقُوّةٍ وآتيْناهُ الْحُكْم صبيًّا ﴿١٢﴾ وحنانًا مّن لّدُنّا وزكاةً وكان تقيًّا ﴿١٣﴾ وبرًّا بوالديْه ولمْ يكُن جبّارًا عصيًّا ﴿١٤﴾ وسلامٌ عليْه يوْم وُلد ويوْم يمُوتُ ويوْم يُبْعثُ حيًّا ﴾ [مريم: ٢ - ١٥].

وفاةُ زكريا ويحيَى
عليهما السلامُ

عَاشَ يَحيى طُفولَتهُ وشبابَهُ يدْعُو إلَى عبادَة الله حقَّ العبَادَة، وينصحُ النَّاسَ بالتَّوبة إلَى الله، ويبشرُهمْ بأنَّ اللهَ سيَغفرُ للتَّائبين ذُنوبَهُمْ ويتجاوزُ عَنْ سيِّئاتهمْ وآثامهمْ.

وكانَ يَحْيَى مُفتيًا لِبنى إِسرَائيلَ كُلِّهِمْ، بمختلف أَسبَاطِهِمْ رَغمَ صغرِ سنه، وكانَ حَاكمُ فلسطينَ رجُلاً يُدعَى هيرُودُس، وكانَ لَهُ ابنةُ أخٍ يقُالُ لَهَا هيرودِيًا كَانتْ رَائعةَ الجَمالِ فتَانَةً، فَأُعجبَ بهَا الملكُ، وأرادَ أن يتزوَّجَهَا، ولكنَّه عمُّهَا، وكانت الفتَاةُ وأمُّهَا تُريدَانِ الزواجَ منَ الملك، ليقَالَ أنهَا زوجةُ الملك، أَىْ أنهَا الملكَةُ، ولكنَّ المستشَارينَ أشَارُوا بضرورة إِسْتِصْدار فَتوى من يَحيَى عَليهِ السَّلامُ بشأنِ هَذَا الزَّواجِ. فقَالَ عليْهِ السلامُ إجابةً لفتوَاهُمْ:

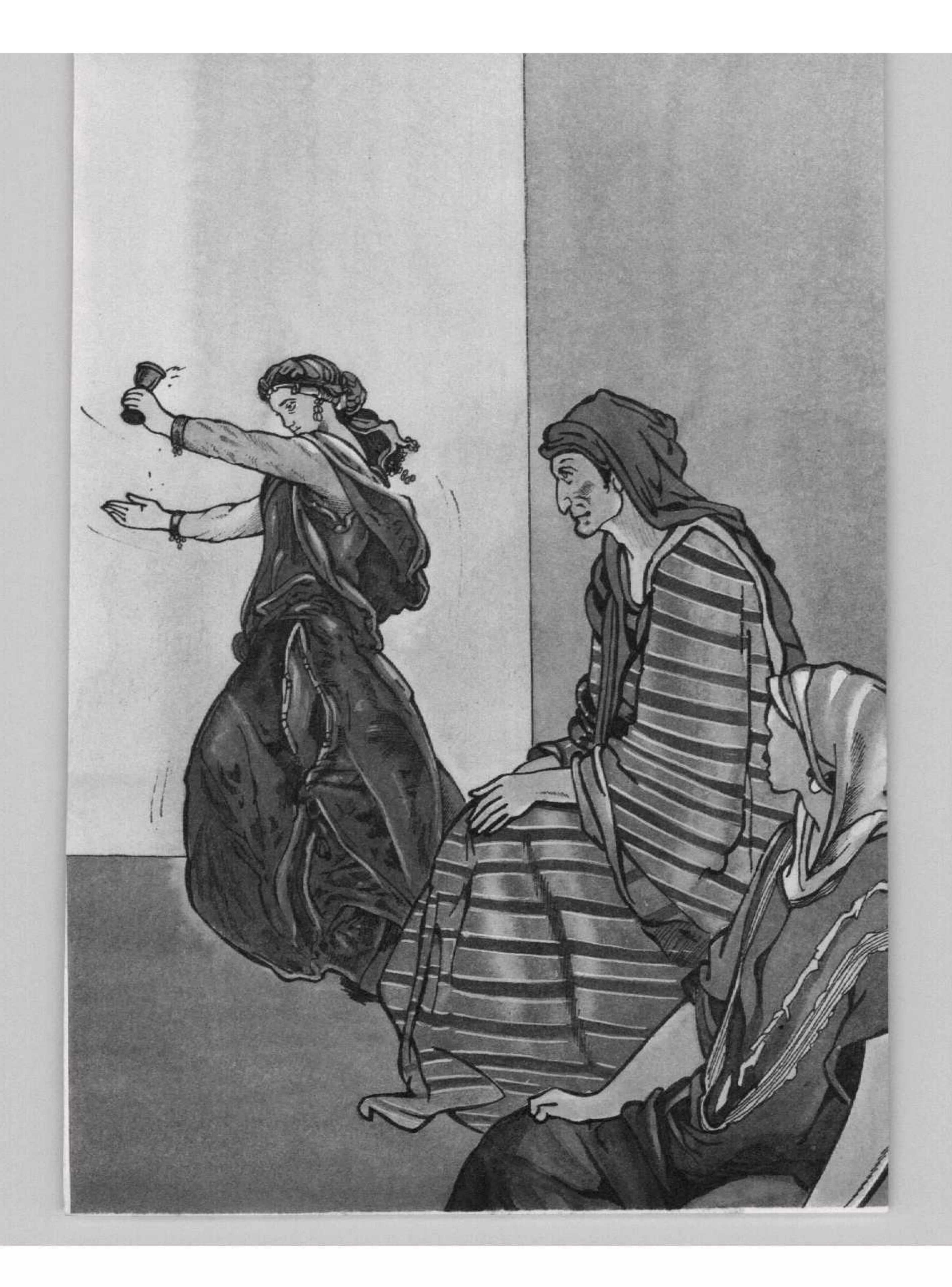
إنَّ هذَا الزَّواجَ محرَّمٌ تَحريمًا باتًا.

ولَكنَّ الملكَ صَممَ عَلَى الزَّواجِ منَ ابنة أخيه، فَزيَّنت الأمُّ ابنتَهَا بأروعِ زينةٍ، لزفافهَا إِلَى الملك، واتفقتْ معَهَا عَلَى خُطَّةٍ يقْضيَانِ بهَا عَلَى يَحيَى عَلَيْهِ السَّلامُ، ذَلكَ النَّبىُّ الَّذى يُعارِضُ رَغَباتِ عِليَة القَوْمِ ويُفتى بتحريمِ مَا يريدُونَ منْ مَلذَّاتٍ وشَهَواتٍ.

وأوصتِ الأمُّ ابنتَها بِأَنْ تنتهزَ فُرصَةَ العُرْسِ، وفرحَةَ الملكِ الَّذى هُوَ عَمُّهَا بزفَافِهَا إِليهِ وسُرورِه بتحقيقِ شهواته، وتَطلبَ مِنْهُ رأسَ يَحيَى كَهديَّةٍ لَهَا بمناسَبةِ ذَلكَ الزّفافِ السَّعيد.

وَجاءتْ لَحظَةُ الزَّفافِ ورَقصتِ الفَتاةُ أمامَ الملكِ رَقصًا مثيرًا، فزَادَ إِعجَابهُ بجمَالِ ابنةِ أخيهِ الَّتى أرادَهَا زوجةً لَهُ، وقَالَ لَهَا: اطْلبى مَا تشائينَ تجديه عَلَى الفورْ بينَ يَديْك. أىَّ شىْءٍ مَهمَا كَانَ سَأقدِّمهُ لَكِ هَديةَ زَواجنَا فِى هذهِ اللَّيلةِ السَّعيدَةِ.







كَانتْ لَيلةَ عيدِ بَنى إسرَائيلَ، وَكانَ القَـومُ يمرَحُونَ ويرْقُصونَ بينَمَا كَانَ يَحيَى وَوالدهُ زكريَّا يتعبَّدانِ للهِ، ويْسبِّحانِ ويذكَرانِ ويْشكرانِ.

قَالتِ الفَتاةُ بدَلالٍ:

أيُّها الملِكُ الحبِيبُ.. لاَ أريدُ شيَئًا.. سِوَى..

ولَمْ تُكملِ الفَتاةُ طلبَهَا، فعاجَلَها الملكُ بقَولِه:

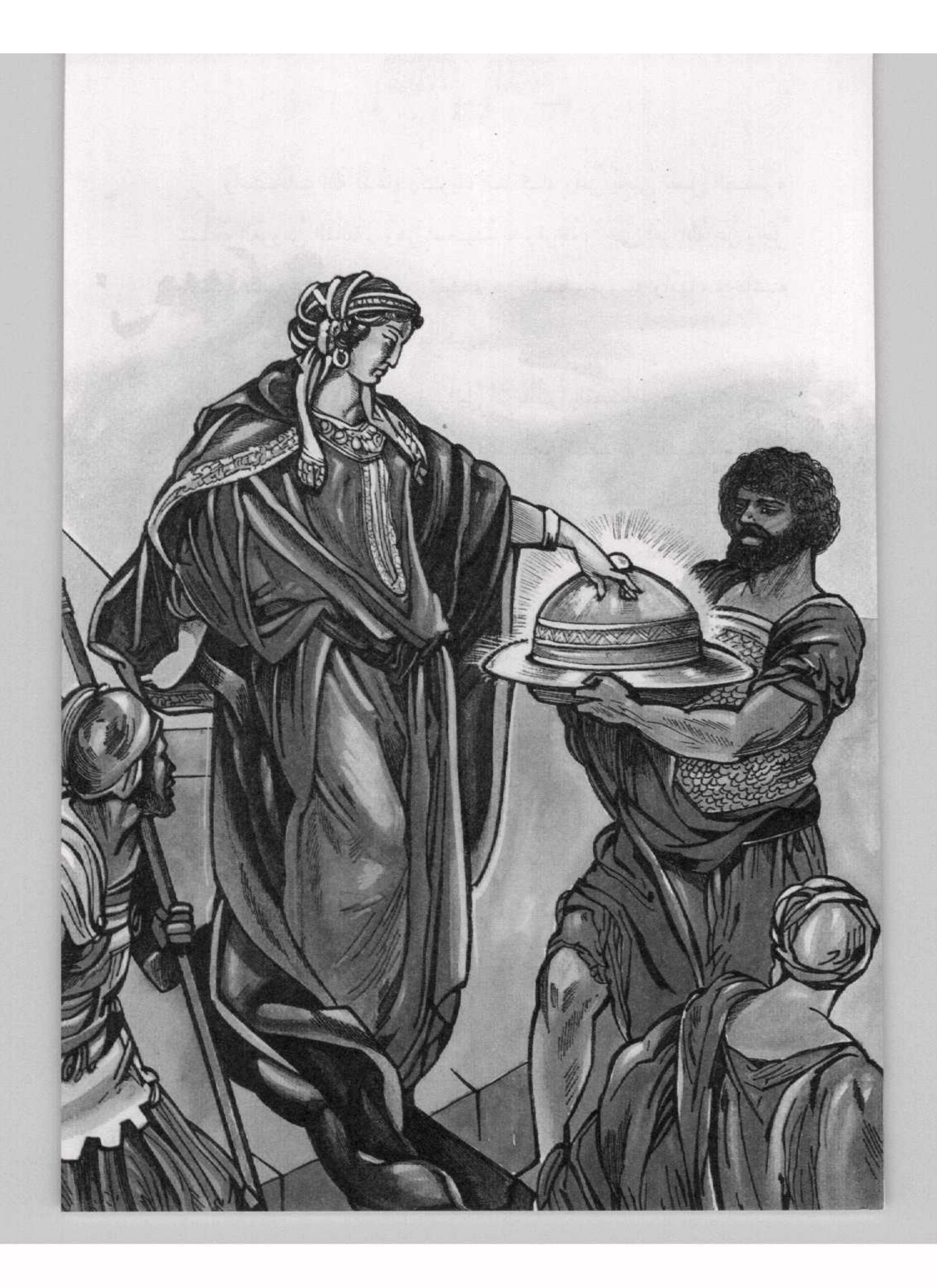
أمرُكِ مُجابٌ يَا فاتنةَ الألبابِ. مَاذَا تُريدينَ؟

قَالتْ وَهِيَ تُبالغُ فِى دَلالِهَا:

أُريدُ رَأْسَ يَحيَى الَّذى سيُفسِـدُ علينَا حياتَنَا، وسَيؤلِّبُ النَّاسَ عَلينَا، ويَقضِى عَلَى مُتعتَنا بفتْواهُ بتحرِيمِ هَذَا الزَّواجِ.

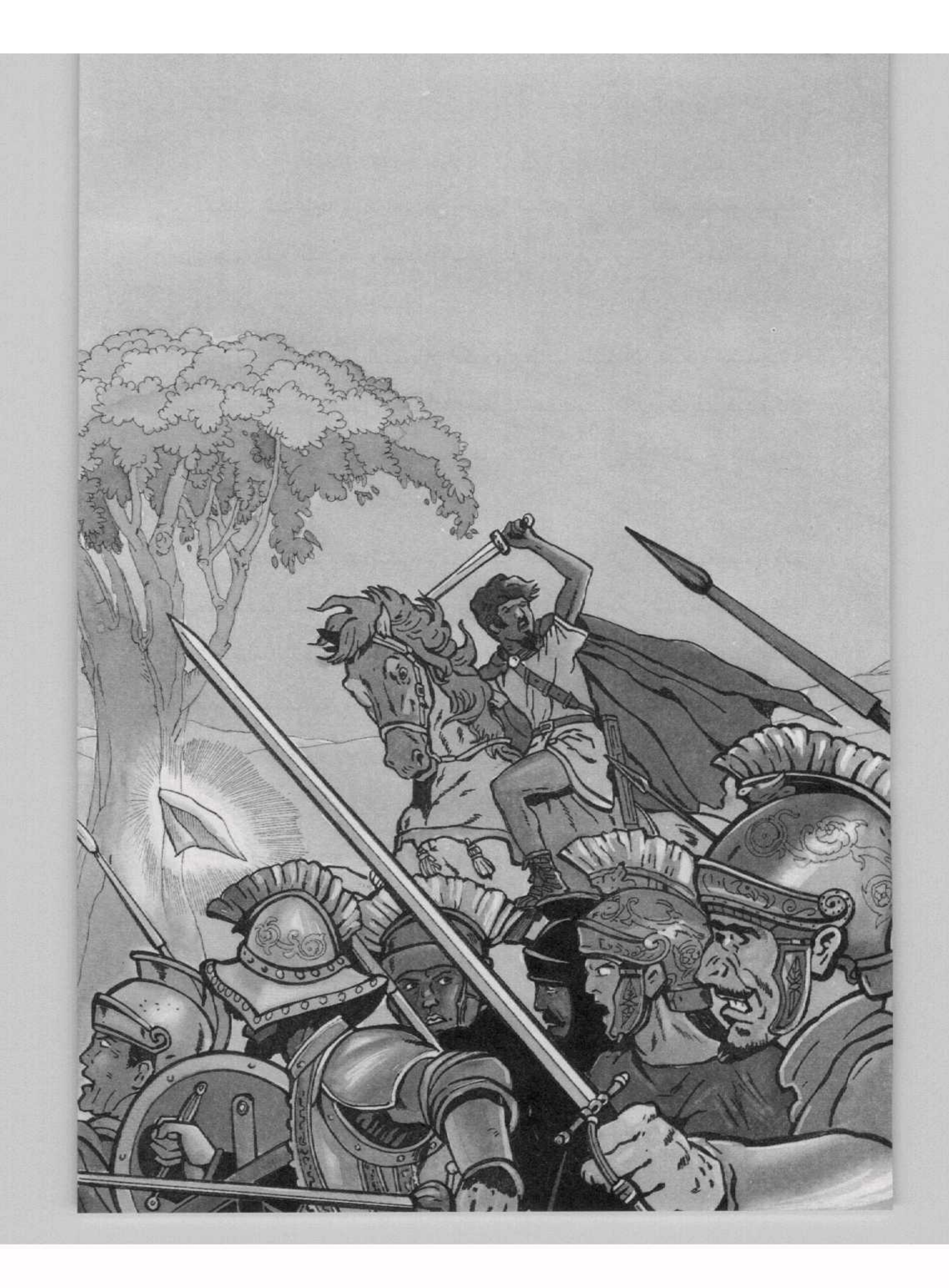
أَرسلَ الملكُ رُسلَهُ؛ لِيحضِرُوا لَهُ رَأسَ يَحيَى فوجَدُوهُ سَاجدًا للهِ فِى محرابِهِ أمَامَ وَالدِه زكريَّا عَليهمَـا السَّلامُ، فجزُّوا رأسَهُ إِلَى أَنْ فصَلُوهُ عَنْ جَسدِه، وأَخـذُوا رأسَ يَحيَى وقدَّمُوهُ إلَى تلكَ الفـتَاةِ عَلَى طبَقٍ مِنْ بلُّورٍ ليهَدأَ بَالهَـا وترتَاحَ نفسُهَا، ولَيـتمَّ زفافُهَا إِلَى الملكِ دُونَ إثارَةٍ، ولَيـسعدَ الملكُ بزواجِهِ، دُونَ شغبٍ أَو جِدَالٍ، ودُونَ أنْ يسمعَ حُكمًا عليهِ بتحريمٍ أَو تَحليلٍ.

أمَّا زَكريَّـا عَليهِ السَّلامُ فإنَّهُ لَمْ يَقطعْ صَـلاتَهُ رَغمَ الدَّمِ الَّذى أغرقَ المحَرابَ، بَلْ دعَا اللهَ وهوَ سَاجدٌ أنْ ينتقمَ مِنَ الملكِ وحَاشيتِه، بقُوَّتِه عَزَّ وجَلَّ وعدْلِه، جزاءَ مَا فعلُـوهُ بولدِه نَبىِّ اللهِ يَحيَى عَليْهِ السَّلامُ؛ ليكُونُوا عِبرةً لبنِى إِسرَائيلَ.



وَاستجَابَ اللهُ لدعاءِ زكريَّا، فَما كَادَ رأسُ يَحيى يَصِلُ القصرَ، تتسلَّمُهُ العَروسُ الفَاتنةُ، وَهِيَ سَعيدةٌ بِهِ وفرِحَةٌ، حتَّى أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ ملائكَتَهُ بتدْميرِ القَصْرِ عَلَى مَنْ فِيهِ، مِنَ الملكِ وعروسهِ وَأمِّهَا، وحَاشيتهِ وجُنودِهِ كُلِّهِمْ فأصبْحُوا مِنَ الهالِكينَ.

وَسوسَ الشيطَانُ لِبَنِي إسرَائيلَ أنْ يطْلُبُوا القِصاصَ مِنْ والِدِ يَحْيَى الَّذِي دعَا عَلَى مَلِكِهِمْ فدمَّرَهُ اللهُ، دَعا النَّاسُ للقصَاصِ للملكِ وحَاشيتهِ مِنْ زكريَّا، وصدَّقَ شَعْبُ بَنِي إسرَائيلَ مَا وسْوسَ بِهِ الشَّيطانُ، لأنُه شَعْبُ سُوءٍ يُحبُّ الفَاحشَةَ، ويتلذذُ بالمعَاصِي، ولاَ يُبَالِي بغضَبِ اللهِ عَليهِ، فَطلبَ الناسُ القِصَاصَ مِنْ زكريَّا، وتجمَّعُوا، وذَهَبُوا إلَى بيتِ المقْدسِ، ورأى زكريَّا فِي عيُونهِمْ الانفعَالَ والغَضبَ، وعَرفَ أنَّهمْ يريدُونَ بهِ السُّوءَ، ويعزمُونَ عَلَى قَتلهِ كمَا قَتلُوا يَحْيَى، وجَرَى زكريَّا ليختَبئَ مِنهمِ، وجَرَوْا خَلفَهُ، والشَّيطانُ مَعهمْ يدلُّهمْ عَلَى طَرِيقهِ ومكَانهِ، حتَّى وَصلَ زكريَّا إلَى البريَّةِ، إلَى الصَّحراءِ الواسعَةِ، فَلَمْ يَجِدْ شيْئًا يَختبئُ فِيهِ مِنْ هؤلاَءِ القَومِ الظَّالمينَ، إلاَّ شجرَةً وجدَهَا قَد انشقَّ جذْعُهَا وانفتحَ لَهُ، وَنادَتْهُ الشجَرةُ لِيَدْخُلَ فِيهَا، فَدخَلَ، ثمَّ أغلَقَتْ عَليهِ الجذْعَ، ولكنَّ جُزءًا مِنْ ثوبِهِ الأبيضِ قَد ظلَّ خَارِجًا مِنَ الشَّجرةِ، وَجاءَ القَومُ وراءَهُ، فدلَّهُمُ الشَّيطانُ عَلَى مكَانهِ، وأرادَ القَوْمُ أنْ يحرِقُوا الشَّجرةَ بمنْ فِيهَا، فانزَعجَ



الشَّيطانُ انـزِعاجًا شَـدِيدًا، مِنْ حَرِيقِ الشَّـجرةِ، لأنَّهُ تذكَّرَ قـصةَ سـيدِنَا إبراهيمَ عَليهِ السَّلامُ، وكَيفَ كَانـتِ النَّارُ عَليه بَرْدًا وسَلامًا، ولَمْ تحرقْ أَو تؤثر أدْنَى تأثيرٍ عَلَى جَسدِه.

وبسْرعَـةٍ أجَالَ الشَّيـطَانُ فكَرَه، وطَلَب منهُمْ أَن يَقطعُوا الشَّـجرةَ، يَقطعُونَـهَا، ثُمَّ يقطَعونَ الجـذْعَ حَلقات حلَقـات. حتَّى لاَ يتـركُوا مكانًا يكُون فِيـهِ زكريًّا حتَّى يقطَعُوه، وهَا هُوَ ذَا ثوبُهُ الأَبيضُ خَـارِجٌ مِنْ جِذعِ الشَّجرة يُدلُّ عَلَى مكَانه.

وَجاءَ القَـوْمُ بمناشيـرهمْ، وقَطَعُوا الشَّجـرةَ إلَى قِطعٍ صَغـيَرة، فَلمْ يَجدُوا فيهَا شَيئًا لأنَّ اللهَ قَبـضَهُ ورفَعهُ إليه، كَمَا حكَى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي رحلَةِ الإسَراءِ والمعرَاجِ. وتلكَ قُـدرةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وهُوَ القويُّ القادرُ يفـعَلُ مـا يَـشَـاءُ، ولاَ مُـعَـقِّبَ لحكمـه، قَـالَ تَـعـالَى، وَهوَ أصْدَقُ القَائِلينَ: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام].

وَهكَذا.. كَانَ كَيْد اللهِ شَدِيـدًا بالشَّيطان وبأعوانه مِنْ بَنى إسرائيلَ، رَحِمَ اللهُ زكريًّا ويَحْيى، وصَلَّى وسلَّم عَلَى كُلِّ أنْبيائه المرْسَلينَ.

ولاَ تَخلُو هَذه القِصَصُ مِنَ العظَـةِ والعِبْرةِ، فقـدْ عِشْنَا لحظَاتٍ مَعَ نَبيَّينْ كَـريمَينِ صَالحَيْنِ، أخلصَـا للهِ عَزَّ وجَلَّ، فيَسَّر لهُـمَا طَريقَ الطَّاعةِ والسَّعادةِ فى الدنْيا والآخِرةِ.



تُرشدُنَا قـصَّةُ زكريًّا وابنه يحَـيىَ أَنُه لاَ شَىْءَ يَستَحـيلُ عَلَى الله عَزَّ وجَلَّ، لأَنه لاَ يقَعُ فـى مُلكه إلاَّ مَـا يَشَـاءُ، ولأنَّ لهُ مُـلكَ السَّـمـوَات والأَرْضِ وما بينَهُـماَ وهُو عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدير، بيده الأَمْـر منْ قَبلُ ومنْ بعْدُ، وإذَا كَـانت الحيَـاةُ عبَارَةً عَن دَقـائقَ وثَوان، تتَكوَّنُ منهَا السَّـاعَاتُ والأَيامُ والأَسابيعُ والشُّـهورُ والسَّنواتُ، وليسَ فينًا مَنْ يعرفُ مَـتَى يَنتَهى أَجلُهُ، وفِى أىِّ مكَانٍ ستكُونُ وفَاتُهُ، فَلا يَنبغِى لَنَا الإهْمَالُ، بَل لاَ بُدَّ منَ الاستعداد لتلك النهاية، وأن نصبر ونتحمل ولا يصيبنا اليأس ولا نقنط من رحمة الله لأنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

لا بد أن نعتبر من هذه القصص، الـتى أخبرنا الله بِهَا لتكونَ ذكرى لأولى الألبابِ، فهوالقصصُ الحَقُّ، الذى به يهـتدى المؤمنون، ويسترشد المستـرشدون، ويستنير الطائعون، الذين لا يعـصون ربهم ويفـعلون ما يؤمرون.